المحاضرة الرابعة:

المدارس الاقتصادية: التجاريون والطبيعيون

تمهيد:

بعد فترة من الركود في الفكر الاقتصادي الأوروبي في العصور الوسطى أو ما يعرف بعصور الظلام في أوروبا، شهد الفكر الاقتصادي تطورا كبيرا نتيجة لمجموعة من الظروف التي أسهمت بشكل جدي في تطور الفكر الاقتصادي وفي قيام علم اقتصادي قائم بذاته في ما بعد، وقد كان للمدارس الفكرية الأثر الكبير في ذلك من بين هذه المدارس المدرسة التجارية (الماركنتيلية) والمدرسة الطبيعية(الفيزوقراطية) التي سوف نتناول أهم أفكارها في ما يلي:

1-المدرسة التجارية (الماركنتيلية)

" يطلق مصطلح التجاريون على جميع الكتاب الذين ساهموا في وضع السياسة الاقتصادية التي سادت في عصر الرأسمالية التجارية في بلدان أوروبا الغربية من بداية القرن السادس عشر إلى نهاية الربع الثالث من القرن الثامن عشر أي من 1500 إلى غاية 1775 علما أن هذه التواريخ تختلف من بلد إلى أخر فقد حل عصر الرأسمالية التجارية في أعقاب النظام الاقطاعي وظل حتى عصر الرأسمالية الصناعية، إن مذهب التجاريين جعل الثروة متمثلة بالمعادن النفيسة (الذهب والفضة)، وجعل هدف السياسة القومية هو أن تدير الدولة علاقاتها مع العالم الخارجي بحيث تجذب اكبر نصيب ممكن من المعادن النفيسة." ومن أبرز رواد هذه المدرسة : توماس مان، جان كولبير، وليم بيتي

1-1 أسباب ظهور الفكر التجاري:

اجتمعت مجموعة من الأسباب الاقتصادية والسياسة والعلمية التي أسهمت في ظهور الفكر التجاري وبمكن أن نلخصها في مايلي:

أ- أسباب سياسية:

شهد القرن السادس عشر العديد من الحركات السياسية التي أدت إلى انهيار النظام الاقطاعي وظهور دولة القومية، وبالتالي تخلص الفكر السياسي والاقتصادي في ذلك الوقت من الحقوق الإلهية التي كان يدعيها الأمراء والملوك.

ب-أسباب علمية:

شهدت فترة القرون الثلاثة بداية من القرن السادس عشر وحتى القرن الثامن عشر حركة علمية كبيرة، حيث اتسمت الحياة في ذلك الوقت بتشكل الحياة الواقعية والفكرية، ومن أهم الأفكار التي ساعدت على ظهور الفكر التجاري ظهور فكرة التصنيع فتطور النقل وزادت أهمية التجارة الخارجية مع الكشوفات الجغرافية الجديد مثل اكتشاف أمريكا وكذا الطريق البحري إلى الهند.

ج- **أسباب اقتصادية:** وهي ثلاثة أسباب رئيسية هي:

- تزايد دور الزراعة
- التنظيم الحرفي الصناعي الجديد
- نزايد النشاط التجاري.

2-1 مبادئ المدرسة التجارية:

تركز فلسفة المرسة التجارية على مجموعة من المبادئ نذكر أهمها في مايلي:

- قوة الدولة الاقتصادية وثرائها يعتمد على مقدار ما تملكه من نقود معدنية (معادن نفيسة)
- ساد لدى التجاريون اعتقاد أن البحث الاقتصادي يجب أن يستهدف إثراء الدولة وذلك عن طريق زيادة المعادن النفيسة فهي حسبهم مصدر الثروة ومخزن القيمة.
- زيادة السكان تؤدي بالضرورة إلى لزيادة قوة الدولة الاقتصادية نتيجة لزيادة اليد العاملة وبالتالي انخفاض تكاليفها في مجالات الصناعة والزراعة، والتي هي نشاطات مكملة للتجارة، وبالتالي يساعد هذا في نمو التجارة وزيادة اكتساب الثروة .

- ❖ التجارين خاصة التجارة الخارجية هي النشاط الرئيسي المساهم في تكوين وتراكم رأس المال وزيادة الثروة، كما أن الصناعة أهم من الزراعة لأنها أكثر فائدة في تكوين رأس المال.
- ❖ الثروة حسب التجاريين حجمها ثابت وبالتالي ثراء الدولة ما يكون على حساب دولة أخرى.
- ❖ يجب على الدولة التدخل في النشاط التجاري من أجل تنظيميه فقط.

1-3 تقييم الفكر الاقتصادي للتجاريين:

من بين أهم ما يميز الفكر التجاري أنهم استطاعوا تخليص الاقتصاد من فكر الكنيسة ولو كانت اسهاماتهم لا ترقى إلى تأسيس علم اقتصاد قائم بذاته، إلا أنهم ساهموا في نشوء الدولة القومية وتوفير رأس المال النقدي، كما كان لهم الفضل في تطوير الصناعة والتجارة إلا أنهم قد جانبوا الصواب في كثيرا من أفكارهم حيث أنهم باهتمامهم بالصناعة والتجارة قد أضروا بالزراعة، رغبتهم أيضا في الحصول على المعادن الثمينة أدت إلى ظهور المستعمرات والحروب وهو ما أثر على الانسانية عموما.

2-المدرسة الطبيعية (الفيزيوقراطيين):

ظهرت في فرنسا في القرن الثامن عشر، وهي أول مدرسة حديثة من المفكرين الذين اعتبروا أنفسهم اقتصادين أو أول مدرسة حديثة في الفكر الاقتصادي وقد عرفوا بأنصار المذهب الطبيعي وعلى رأسهم الدكتور فرانسوا كيناي F.Quensay وقد مثل أراء وكتابات المجموعة بداية ظهور علم الاقتصاد وجوهر فلسفتهم هو النظام الطبيعي.

2-1 أسباب ظهور المدرسة الطبيعية:

من بين أهم الأسباب التي أسهمت في ظهور الفكر الطبيعي مايلي

أ- **من الناحية الفكرية:** حيث انتشرت فكرة القانون الطبيعي التي كانت أصولها موجودة عند أرسطو والتي انتقلت منه إلى كتاب القانون الروماني ثم إلى المدرسيين في القرون الوسطى، وقد طبقت هذه الفكرة في العلوم الطبيعية على وجه الخصوص ولكن تطبيق لم يكن قد انتشر بعد في العلوم الاجتماعية.

ب-**من الناحية الفلسفية:** من ناحية الفلسفة السياسية فإن الفكرة السائدة كانت هي النظر إلى الملك باعتباره صاحب سلطان مطلق، وقد كانت هذه الفكرة امتداد للأرء التي صاحبت القضاء على الاقطاع والتي كانت تطالب بقوة الملوك حتى تقوي الدولة الناشئة.

ت-**من الناحية الاقتصادية:** فقد ساءت أحوال المزارعين بسبب انخفاض دخلهم على إثر تطبيق سياسة التجاريين التي كان مقتضاها جعل أثمان المنتجات منخفضة لتشجيع الصناعة، وبذلك ساد الشعور بضرورة اصلاح ذلك، ومن ناحية أخرى كانت القيود كثيرة التي فرضت على النشاط الاقتصادي تحت تأثير التجاريين عائق خطير لنمو الانتاج والتصدير الزراعي.

2-2 فكرة الطبعيين وأهم مبادئهم:

يعتبر الطبيعيون أن الطبيعة هي المصدر الوحيد للثروة الاقتصادية وقد ترتب على ذلك النشاط الاقتصادي الأخر مثل الصناعة والتجارة والخدمات نشاطات غير منتجة، وهذا يعتبر تحولا مهم عن الفكر التجاري. كما أن أحوال المزارعين كانت سيئة وذلك بسبب انخفاض دخولهم من جراء تطبيق سياسات التجاريين والتي كان من مقتضياتها جعل أثمان المنتجات الزراعية منخفضة من أجل دعم الصناعة لهذا ساد شعور بضرورة اصلاح تللك الأوضاع لأن القيود التي فرضها النشاط الاقتصادي كانت كثيرة وأصبحت عائقا أمام نمو الانتاج .

إذا يؤمن الطبيعيون بوجود قوانين طبيعية تتولى الأمور كلها بما فيها الحياة الاقتصادية عن طريق مبدأين:

المنفعة الشخصية وهي حافز للنشاط الاقتصادي والقوة التي توجههم لمباشرة هذا النشاط. والمنافسة أي أن كل فرد يسعى لتحقيق منافعه الشخصية ولكن حتى يفعل ذلك يدخل في تنافس مع بقية أفراد المجتمع وتميزت هذه القوانين بخصائص أربعة هي:

- إن القوانين الطبيعية هي قوانين مطلقة ولا استثناء فيها.
- إن القوانين الطبيعية عالمية تنطبق على جميع البلدان.
- إن القوانين الطبيعية أزلية لا تتغير عبر الزمن
- إنها قوانين إلهية ولا يمكن معارضتها

كما اهتمت المدرسة الطبيعية بتحديد مفهوم الثروة وتوزيعها عن طريق الدورة الاقتصادية وحصرها في الانتاج الزراعي حيث عرف الطبيعيون الانتاج بأنه كل عمل يخلق ناتجا صافيا جديدا حيث استنتجوا من ذلك أن الزراعة هي وحدها النشاط الاقتصادي الذي يعتبر نشاطا منتجا، ويعتبر فرانسوا كيناي أن

تدال المنتجات في الجسد الاقتصادي كتناول الدم في الجسد الانساني كما ينادي الطبيعيون بفرض الضريبة على النشاط الزراعي فقط باعتباره النشاط المنتج والوحيد. أما بخصوص تدخل الدولة فيعتقد الطبيعيون أن هذا التدخل يجب أن يقتصر على اكتشاف القوانين الطبيعية وسن القوانين والتشريعات وحماية الملكية الفردية

3-تقييم الفكر الطبيعي:

رغم أن الطبيعيين قد قدموا اسهامات واضحة في الفكر الاقتصادي مثل فكرة الحرية الاقتصادية والدورة الاقتصادية، كما اعتبروا أن الانتاج هو الثروة الحقيقة وليس النقود كما كان لهم الفضل في نشوء علم الاقتصاد السياسي ، ورغم ذلك إلا أن الطبيعيون قد جعلوا النشاط الزراعي هو النشاط الوحيد وهو أمر غير من منطقي فكل من النشاط الصناعي والتجاري يلعب أيضا دورا هاما في تحقيق الثروة وتوسيع الانتاج، بالإضافة إلى ذلك فإن فكرة القوانين الطبيعية وثابتها وأزليته هي فكرة غير صحيحة تماما.